توحيد منطقة عسير

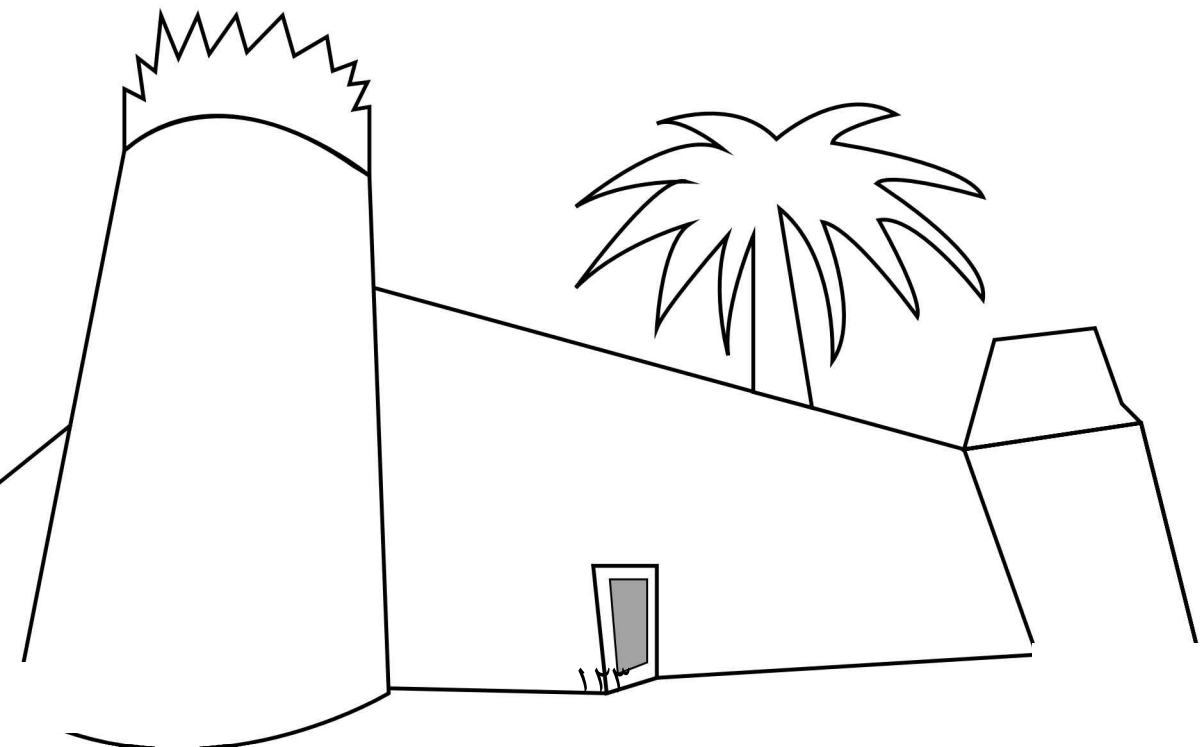

سبق الحديث بإيجاز عن أوضاع منطقة عسير بعد اجتياح قوات محمد علي باشا، والي مصر، لها[1]. وتَبيَّن من ذلك الحديث كيف استمر زعماؤها في مقاومة تلك القوات، ثم في مقاومة جيوش الدولة العثمانية. ومع أن هذه الجيوش تَمكَّنت من السيطرة على المنطقة، فإن المقاومة نشطت من وقت لآخر.

وفي نهاية الأمر جعل العثمانيون -بوساطة من شريف مكة- حسن بن عائض معاونًا للمتصرِّف في عسير. وبعد اضطرارهم إلى مغادرة المنطقة، عام ١٣٣٦هـ، استقلَّ حسن بحكمها.

على أن انسحاب العثمانيين من عسير جعل كُلًّا من الإدريسي، حاكم جازان، والملك حسين، حاكم الحجاز، يَتطلَّع إلى مَدِّ نفوذه عليها. واتَّصل قادتها بهذين الحكمين ليروا ما يمكن عمله[2]. ويقال: إنهم عقدوا اتِّفاقًا مع الإدريسي ليكونوا تحت مَظلَّته[3]. لكن جهود الملك حسين، فيما يبدو، أقنعت بعضهم على الوقوف معه هو. وحدث بينهم وبين الإدريسي قتال رجحت فيه كفتهم[4].

وبينما كانت الأحداث السابقة تجري في منطقة عسير كانت مكانة الملك عبدالعزيز تزداد قوة وانتشارًا؛ خاصة في الجهات المجاورة لتلك المنطقة. ومن عوامل ذلك ما حَقَّقه أتباعه من انتصار عظيم على قوات الملك حسين في تُرَبة سنة ١٣٣٧هـ. ومن المُرجَّح أن وَهج حركة الإخوان قد وصل إلى فئات من قبائل منطقة عسير؛ مثل قحطان وزهران، في تلك الفترة. ولَعلَّ هذا كان سببًا من أسباب

---

(١) انظر ص ص ١٥ - ١٨ من هذا الجزء من الكتاب.

(٢) العقيلي، ج٢، ص٧٣٨.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٤٠.

حدوث خلاف بين تلك الفئات والأمير حسن بن عائض[1]. ونتيجة لهذا الخلاف اتصل قادة الفئات المذكورة بالملك عبدالعزيز يشكون إليه تَصرُّف أميرهم ضدهم. وسارع الملك إلى إرسال وفد إلى هناك محاولًا التوسط بين الطرفين. لكن ابن عائض عَدَّ ذلك تَدخُّلًا في شؤونه الداخلية، ورفض التوسط[2]. واجتمع هذا الرفض مع عوامل أخرى مُهمَّة؛ منها وجود علاقة جيدة حينذاك بين الملك عبدالعزيز والإدريسي المناوئ لابن عائض، وحَذرُ الملك من امتداد نفوذ الملك حسين إلى المنطقة، وما كان يوجد من ارتباط عسير فترة من الفترات بالحكم السعودي. فرأى الملك عبدالعزيز أن الوقت مناسب لِتحرُّكه صوب تلك المنطقة. وأرسل جيشًا إلى هناك بقيادة الأمير عبدالعزيز بن مساعد عام ١٣٣٨هـ. ولما وصل هذا الأمير إلى عسير انضمَّ إليه المؤيِّدون للحكم السعودي. وَهبَّ ابن عائض على رأس قواته لصَدِّ ذلك الجيش ومن انضم إليه. ودارت بين الطرفين معركة في حَجْلة[3]، فانهزم ابن عائض عائدًا إلى أبها. ثم غادرها عندما اقترب ابن مساعد منها، والتجأ إلى جبل حَرْملة[4]. وبعد أن رأى عدم مقدرته على الصمود استسلم هو وبقية أفراد أسرته للقائد السعودي. ثم وصلوا في نهاية الأمر إلى الرياض، واستقبلوا بالتقدير والإكرام[5].

---

(١) عزت بعض المصادر حدوث الخلاف إلى سوء معاملة الأمير حسن لتلك القبائل. انظر الريحاني، ص٣٠٠؛ ابن هذلول، ص١٤٤؛ العقيلي، ج٢، ص٧٤١. لكن هذه المصادر لها موقف معيَّن من آل عائض.

(٢) الريحاني، ص٣٠٠؛ العقيلي، ج٢، ص٧٤٢.

(٣) بعض المصادر توردها حجلة، وبعضها حجلا.

(٤) حرملة مكان حصين كان يلجأ إليه آل عائض عند الضرورة أمام هجمات خصومهم.

(٥) يقول النعمي (ص٢٥٤) وفؤاد حمزة قلب جزيرة العرب، (ص٣٥٦): إن آل عائض غادروا إلى الرياض برفقة ابن مساعد. لكن الريحاني (ص٣٠١) وابن هذلول (ص١٤٦) يذكران أن ابن مساعد أرسلهم إلى الرياض قبل عودته إليها. أما ابن مسفر (ص١٦٦) فيقول: إنهم ذهبوا إلى الرياض وحدهم لمفاوضة الملك عبدالعزيز، وإنهم اتفقوا معه على أن يكونوا أمراء للمنطقة مستقلين بها ذاتيًّا. لكن هذا القول يبدو ضعيفًا.

وبعد أن أقام آل عائض شهورًا في العاصمة السعودية عادوا إلى عسير، وخُصِّصت لهم مُرتَّبات شهرية[1]. وعُيِّن على تلك المنطقة أمير من قِبَل الملك عبدالعزيز، لكن شكاوى السكان منه كثرت، فاستبدل به آخر، فلم تَتوقَّف الشكاوى، ثم استُبدِل بهذا غيره، ولم تنته[2]. ومن المحتمل أن أولئك الأمراء قد بدر منهم ما يوجب الشكوى، لكن من المحتمل، أيضًا، أن تلك الشكاوى كانت نتيجة تحريضات من جهات معُيَّنة كابن عائض أو الملك حسين. وقد تَطوَّر الأمر، على أَيِّ حال، حتى تَزعَّم حسن بن عائض ثورة هناك. وحاصر الأمير السعودي وحاميته في أبها، فاضطر ذلك الأمير إلى الخروج منها مع تلك الحامية بأسلحتها. لكنه جمع أنصارًا من أبناء المنطقة في خميس مُشَيط، وحاول مقاومة ابن عائض، ففشل في مسعاه[3].

ولقد تزامنت تلك الحوادث مع انتصار الملك عبدالعزيز النهائي على آل رشيد. وما إن علم بها حتى جَهَّز جيشًا بقيادة ابنه فيصل قوامه ستة آلاف مقاتل معظمهم من الإخوان. وانطلق ذلك الجيش من نجد في شوال سنة ١٣٤٠هـ. ولما اقترب من منطقة عسير التحق به أربعة آلاف من قحطان وزهران وشهران وغيرها. وهناك علم أن فئات من بني شهر قد تَوجَّهت إلى بيئة محاولة الاستيلاء عليها. فهاجمها وهزمها. ثم واصل زحفه نحو أبها. وعندما اقترب منها تركها آل عائض وأنصارهم. ولجأ حسن إلى حَرْملة. أما محمد بن عائض فسار إلى القنفذة، واستنجد بالملك حسين. فأَمدَّه بسَريَّة صغيرة ومئتي جندي نظامي. وقد تَمكَّن فيصل من اقتحام حَرْملة، لكنه وجد حسن ابن عائض قد فرَّ منها. وتَمكَّن أيضًا، من انتزاع أسلحة الفئات التي لم يكن مطمئنًا إلى ولائها العميق بطريقة

---

(١) الريحاني، ص٣٠١.

(٢) كان الأمير الأول شُوَيْش بن ضويحي، ثم عبدالله بن سويلم، ثم فهد العُقَيْلي.

(٣) النعمي، ص ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

ذَكيَّة سلميَّة[1]. واستطاع أتباعه من الإخوان أن يهزموا محمد بن عائض ومن معه من أتباع الملك حسين. وبعد ذلك عَيَّن سعد بن عُفَيْصان أميرًا على عسير، وأبقى لديه حامية مُكوَّنة من خمس مئة مقاتل، ثم عاد إلى الرياض[2].

على أن آل عائض حصلوا على معونة من الملك حسين، فَنسَّقوا مع أنصارهم في عسير، وحاصروا ابن عفيصان في أبها. وأخرج هذا الأمير قوات لِصدِّهم، لكنها لم تنجح في بداية الأمر. وكادت أبها تسقط في أيدي المحاصرين لها لولا وصول نجدة من الرياض. ولقد توفي ابن عُفَيْصان بعد تلك الحادثة بأيام[3]. فَحلَّ مَحلَّه في الإمارة عبدالعزيز بن إبراهيم، الذي امتاز بالحزم والدهاء. وكان من دهائه أن ذهب إلى ابن عائض في حَرْملة، وتفاوض معه، وبذل له ما أرضاه. ثم استقدمه إلى أبها، وأكرمه. واتّفق معه على سلام أَدَّى إلى ترحيله مع بقية أسرته إلى الرياض حيث بقي الجميع مُعزَّزين مُكرَّمين[4]. وبذلك تَمَّ توحيد منطقة عسير مع ما وَحَّده الملك عبدالعزيز من مناطق البلاد، وتَوطَّد فيها الحكم السعودي.

*****

(١) انظر تفصيلات ذلك لدى الريحاني، ص ص ٣٠١ - ٣٠٣؛ الذكير، نسخة خاصة، ص١١٥؛ ابن هذلول، ص ص ١٤٧ - ١٤٩؛ العقيلي، ج٢، ص٧٤٣؛ النعمي، ص ص ٢٥٦ - ٢٥٩.
أما الطريقة المشار إليها فهي أن فيصلًا أمر تلك الفئات أن تقدم إليه بأسلحتها استعدادًا للقيام بغزو. ثم أمر كل من دخل من أفرادها الباب الأمامي لمكان استقبالها أن يسلِّم سلاحه ليأخذه بعد اللقاء عند باب آخر. وبذلك تمَّ انتزاع تلك الأسلحة.

(٢) المصدر الأخير نفسه، ص٢٥٨.

(٣) المصدر الأخير نفسه، ص٢٥٩.

(٤) المصدر الأخير نفسه، ص٢٦٠.